

في علوم الاعلام والاتصال*

أ. عزيز لعبان*

azizlabane@gmail.com

ملخص

تعني هذه الدراسة بكيفية تطور علوم الاعلام والاتصال نظريا ومنهجيا، من خلال تسليط الضوء على النقاش المستمر حول شرعية هذه الاخيرة كعلوم قائمة بذاتها، على الرغم من استخدامها لنظريات ومناهج مستمدة اساسا من مجالات معرفية مختلفة كعلم الاجتماع، علم النفس، علم النفس الاجتماعي، الانثروبولوجيا... وغيرها من العلوم.

تطرح الدراسة مسألة تموقع الظاهرة الاتصالية تاريخيا في مفترق طرق الظواهر الاجتماعية الاخرى، مع خاصية اساسية وهي ان الذي يربط بين هذه الاخيرة هي الوسيلة الاعلامية التي برّر وجودها انشاء علم او علوم جديدة تعني بدراستها وتفسيرها، كما وفر الموضوع العلمي الذي برّر الحاجة الى تخصص مستقل عن التخصصات الاجتماعية التي انحدر منها الدارسون الاوائل لوسائل

* عنوان المقال مستلهم من مقال Ilya T. Kasavin المعنون "The Idea of Interdisciplinary Approach" in Contemporary Epistemology

* أستاذ محاضر بكلية علوم الاعلام والاتصال.

الاتصال الجماهيرية، ولعل هذه الخصوصية التي ميزتها منذ نشأتها ورافقتها في تطورها، هي التي جعلت منها علوم متعددة التخصصات. إلا ان تراكم البحوث والدراسات المرتبط بتغلغل الوسيلة الجماهيرية في كل قطاعات المجتمع ومجالاته وضع الباحث في علوم الاعلام والاتصال في المفارقة التالية : اولا، كيف يمكن تغطية هذه المجالات الواسعة، ثم الربط بينها ؟ ثانيا، كيف يمكن الاتفاق على قاعدة تكون الحد الأدنى للمراجع النظرية، والمفاهيمية او البراديفية ؟ وهي المفارقة التي تلازم هذه العلوم الى يومنا هذا، خاصة في المجتمعات التي لم تعرف تطور علوم الاعلام والاتصال، وبصفة ادق، لم تعرف المؤسسة المعرفية ولا الاجتماعية لهذه العلوم، واكتفت برصد تطوراتها نظريا ومنهجيا، من دون ان يكون لهذا التطور حقيقة في الواقع العلمي والاجتماعي لمجتمعنا، وهو ما جعلها تتعاطى إما مع اشكاليات نظرية بعيدة كل البعد عن الواقع المعيش، او تفسر هذا الواقع بأدوات بعيدة كل البعد عن الدقة العلمية والصرامة المنهجية التي توفرها المناهج العلمية المختلفة.

حاولت في هذه الدراسة ان ارصد بعض الملاحظات الخاصة بتطور علوم الاعلام والاتصال في الجامعة الجزائرية انطلاقا من معيارين يعتبران مؤشرا هامة لمعرفة كيفية تطور علم ما في اي مجتمع، ومدى تجذره، وهو ما يسميه Olivesi المؤسسة المعرفية والاجتماعية، لإدراك ولو بصفة أولية الاسباب التي ادت الى عجز الجامعة على انتاج تراكم معرفي في اي مجال من مجالات دراسة الاعلام والاتصال، بحيث اننا اليوم عاجزين على تقديم معرفة منظمة في تفسير اية ظاهرة من الظواهر المتصلة بالاتصال او الاعلام.

والهدف من هذه العملية هو فتح النقاش وليس تقديم اجابات، لان الحاصل عندنا هو اخذ الاشياء على انها مسلمات في الوقت الذي لا يتوقف النقاش حولها في المجتمعات التي انتجتها.

الكلمات المفتاحية : الوسيلة الجماهيرية، التداول المتعدد التخصصات، ابستمولوجيا الاتصال، علوم الاعلام والاتصال، المؤسسة المعرفية والاجتماعية.

تتاول هذه الدراسة بعض الافكار حول تخصص علوم الاعلام والاتصال وكل النقاش الذي صاحب تطورها وسط التخصصات الاجتماعية الاخرى، انطلاقا من ابستمولوجيا هذه العلوم، مروراً بالجدال حول استقلاليته كعلم قائم بذاته، ووصولاً الى التساؤل اللامتناهي حول مجالاته والانتهاى بالريبة التي تحوم حول مناهجه وادواته.

لا اسعى من خلال التطرق الى التداول المتعدد التخصصات مراجعة تراث "بالو آلتو" على الرغم من اهمية تجربة ما عرف بـ "محاضرات ماسي" (Conférences Macy) التي يعتبرها كثير من الباحثين التجربة المرجعية للبحث عبر التخصصات، وانما وضع التخصص في مسار التطور الاكاديمي كعلم نشأ بصفة مستقلة عن العلوم الاجتماعية الاخرى، ولكن ايضا الى جانب هذه الاخيرة، مع وضع الوسيلة في قلب هذا التطور واعتبارها المحور الذي دارت حوله النقاشات التي سمحت بتطوير علوم الاعلام والاتصال، واتساع مجالاته.

• توطئة ابستمولوجية

ما يزال النقاش قائماً الى يومنا عند المؤرخين لعلوم الاعلام والاتصال حول ظهور هذه الاخيرة، وطبيعة علاقتها مع التخصصات الاخرى القريبة منها، ونجد دائماً عند المتخصصين في علوم الاعلام

والاتصال الحاجة الى تبرير ضرورة وجودها والبحث الدائم والمستمر عن خلفية ومرجعية تاريخية لها، لإعطائها نوع من النبل والشرف كمثيلاتها في العلوم الاجتماعية والانسانية، واكثر من هذا، الشرعية المفقودة.

على الرغم من انه مضى ما يقارب القرن على بروز علوم الاعلام والاتصال، ك تخصص علمي في الجامعات العالمية، الا ان النقاش يتجدد في كل مرة ويعود الى الواجهة. ومرد ذلك الى ان هذه العلوم لم تظهر نتيجة نقاشات ثقافية فلسفية للنخبة الفكرية في المجتمع، وانما فرضتها تطورات تقنية تكنولوجية، برزت الحاجة الى ايجاد اطر داخل الجامعات من اجل تفسيرها. ولهذا كلما ظهرت الى الوجود تكنولوجيا جديدة ذكرتنا بالنقاش حول العلوم التي تفسرها، وهذا يضطرنا الى تذكير ابستمولوجي.

يشير lucien sfiez الى ان الابستمولوجيا "تقدم لنا صورة منسجمة للممارسات التي تحتويها. بطريقة اخرى، الابستمولوجيا خطاب ربط، لا يكون على شكل ملاحظة بسيطة للموجود، ولكنه بحث عن الثوابت في مختلف الممارسات" (Sfez, 1994, p. 57) وهذا يؤدي بنا الى التساؤل عن الرابط الموجود بين مختلف الممارسات الاتصالية الشخصية منها والجماعية، وكذا الخطابات المصاحبة لها.

يقترح sfiez حتى نفهم ما الذي يربط بين كل هذه الخطابات المنتجة حول الاتصال، والممارسات التي تغطيها، ان نمارس عليها نقدا يكون تمييزيا (Discriminant) وبنائيا (constructif). يظهر في الخطوة الاولى ان رصد ترددات مفهوم الاتصال واستخداماته المختلفة والخطابات المنتجة في مختلف المجالات يأخذ مظاهر الخطاب

الايديولوجي لأنه يمس كل المجالات بدون تمييز ويغطي وقائع مختلفة الى درجة حجبها بدل توضيحها وتفسيرها.

في حين انه في الخطوة البنائية ينبغي تمييز المبادئ العملية التي تقوم عليها الميادين التي تعني بالاتصال، واستخراج النواة الصلبة لكل ميدان، ثم التعميمات التي تشمل هذه المبادئ. ومنه استخراج مفاهيم مفتاحية مثل الاتصال، الجمهور، الراي العام، الاعلام، الصحافة... الخ.

يقول Daniel Bounoux في مقدمة كتابه Introduction aux sciences de la communication ان التخصصات التي تعني بالاتصال لا تشكل مجموعة مغلقة من الاشكاليات، والنظريات، او المعطيات الامبريقية. وان الذي يغامر فيها تواجهه اختلافات بحسب الجامعات، والبرامج، والمسارات. وان الاساتذة والباحثين لا يملكون سوى قطعا مجزئة من جغرافيا الدراسات. ويرجع ذلك إلى صفة تعدد التخصصات التي تميز هذه العلوم.

يعيد كثيرون تاريخ اي علم او تخصص علمي الى بعده الثقافي الفكري (intellectuels)، اي تاريخ الانجازات العلمية، او الى حياة الباحثين والمفكرين لمحاولة البحث عن نوع من النبل والاصالة، لان تطور العلوم الاجتماعية والانسانية كان نتيجة نقاشات وتبادلات فلسفية وفكرية، بينما اذا عدنا الى علوم الاعلام والاتصال نجد بان اكثر الذين يؤرخون لها يؤكدون على "الابعاد المعرفية والاجتماعية لبنائها كتخصص اكايمي مستقل" (Olivesi, 2006, p. 257)، وهو ما يسميه "المأسسة المعرفية والاجتماعية".

تحيلنا المؤسسة المعرفية إلى صياغة تساؤلات البحث،
الاشكاليات، بناء الموضوعات، وإلى التراكم النظري والمنهجي.
بينما تشير المؤسسة الاجتماعية إلى طرق تنظيم البحث، والتدريس،
وكذا البنيات الاجتماعية لإعادة تكوين الباحثين، بالإضافة إلى
نظم النشر... (Olivesi, 2006, p. 251)

ولهذا إذا عدنا إلى تطور علوم الاعلام والاتصال نجد انها
كانت محصلة التقاء عدة تخصصات معرفية (علم الاجتماع، علم
النفس، علم النفس الاجتماعي، الادب، العلوم السياسية...) لدراسة
ظواهر اجتماعية (الدعاية، الاشهار، العنف، الرأي العام، الصحافة
المكتوبة، السينما، التلفزيون...) لفتت الانتباه، وشكلت وسائل
الاتصال الجماهيرية النقطة المشتركة لها. وهذا التعدد في تناول
بالإضافة إلى كثرة الدراسات المرتبط بتغلغل هذه الوسائل في كل
قطاعات المجتمع وفر الموضوع العلمي الذي برز الحاجة إلى تخصص
مستقل عن التخصصات الاجتماعية التي انحدر منها الدارسون
الأوائل لوسائل الاتصال الجماهيرية.

ولكن من جهة أخرى خلقت هذه الوضعية مشكلة ما زالت
قائمة إلى يومنا هذا وهي : كيف يمكن الحديث عن علوم لا تملك
مناهج أو أن مناهجها مأخوذة من علوم أخرى ؟ وهل يمكن القبول
بعلوم تتطفل على التخصصات الأخرى من أجل استلاف أدوات
ونظريات لمعالجة موضوعاتها التي هي أيضا مدروسة في إطار
التخصصات العلمية الأخرى ؟

أو القبول بصفة نهائية بخصوصية هذه الوضعية واعتبار التناول
المتعدد التخصصات ميزة مميزة لعلوم الاعلام والاتصال.

"إن ميدان علوم الاعلام والاتصال تأسس على التوالي، الى جانب كل التخصصات الاخرى ليتمكن من التواجد كتخصص قائم بذاته، وكواجهة بين التخصصات. اصبح المكان الذي تتقاطع فيه وجهات النظر العلمية حول الأنساق الانسانية الاتصالية والاعلامية، وحول امتداداتها التقنية، وظروفها السياسية، والاقتصادية، والصناعية، والثقافية." ¹ (Mathien, 1995, p. 77)

ان التناول المتعدد التخصصات (pluridisciplinarité) يفرض نفسه كحتمية بالنظر الى تطور وتعقد الاشكاليات المرتبطة بالاتصال في عصرنا، والواقع الذي يفرضه الاتصال في مجتمعات اليوم مع انفجار التكنولوجيات الخاصة بالاتصال، وهو ما يؤكد Michel Mathien

"أن هذا التخصص يشكل حقلا لنشاطات علمية في طريق البروز، سمح بظهوره الانتشار المشترك لمقاربات متعددة التخصصات" ² (Mathien, 1995)

ولكن بالعودة الى ما ذكره sfiez سابقا فان الاستمولوجيا تسمح لنا بالانتباه الى الثابت في هذه التطورات والعلاقات. اذ ان تطور هذه العلوم، على الرغم من التسوع النظري الذي وفرته (نظريات ذات مقاربات اجتماعية، نفسية، اثوغرافية، انثروبولوجية. . .)، إلا أن الثابت بينها

¹ Le domaine des «sciences de l'information et de la communication» s'est donc constitué à la fois comme discipline, à côté de toutes les autres pour pouvoir exister en tant que telle, et comme interface entre disciplines. Il est devenu le lieu des regards scientifiques croisés sur les systèmes humains d'information et de communication, sur leurs prolongements techniques, sur leurs conditionnements politiques, économiques, industriels et culturels.

² Cette discipline constitue aussi un chantier d'activités scientifiques en voie d'émergence que des approches pluridisciplinaires conjointement déployées permettent d'éclairer.

هو الوسيلة، فالبحوث المختلفة التي شكلت الاطار النظري والمنهجي لعلوم الاعلام والاتصال كانت شديدة الارتباط بتطور الوسيلة، فانتقلنا من بحوث الراديو الى السينما، فالتلفزيون، ثم الرقمي، ووصولاً الى التكنولوجيات الحديثة للاتصال.

والامر ذاته بالنسبة لعلاقة علوم الاعلام والاتصال بالعلوم الاخرى، اذ ان نفوذ الوسيلة في كل اجزاء المجتمع، وارتباطها بكل المجالات الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، النفسية، السياسية هو الذي جعل انه لا يمكن الاقتراب الى فهمها الا من خلال مقاربات، ادوات، ومفاهيم متعددة ومتنوعة.

"اصبح المكان الذي تتقاطع فيه وجهات النظر العلمية حول الأنساق الانسانية الاتصالية والاعلامية، وحول امتداداتها التقنية، وظروفها السياسية، والاقتصادية، والصناعية، والثقافية". (Mathien, 1995)

• الوسيلة الجماهيرية في صلب تخصص الاعلام والاتصال.

القول بان الوسيلة الجماهيرية هي العامل المشترك في تطور بحوث الاعلام والاتصال، يعد استفزازاً لكل الذين يريدون البحث عن اصول انثروبولوجية لعلوم الاعلام والاتصال من خلال العودة الى تاريخ الاتصال البشري، والعمل على اثبات تجذر الظاهرة الاتصالية في الزمن، واسبقيتها على وجود الوسيلة الجماهيرية، وهم الذين يركزون على الفعل الاتصالي باعتباره العنصر المحدد للعلاقة أياً كانت الوسيلة المستخدمة، الا ان دراسة متمعة لتاريخ الاعلام والاتصال يثبت عكس ذلك، ويشير Miège بهذا الصدد.

"أن طبيعية المعارضة بين الاعلام والاتصال، والسيادة المفترضة للاتصال، لا تتوافق مع التطورات الماضية (التي سطرت في الاعمال التاريخية والانثروبولوجية) ولكن يمكن اعتبارها - في صيغتها العمومية، كما في تصورات ما بعد الماكلوهانية - كاختزال شكلي وسطحي، يمنع من التفكير في تعقيدات الروابط التي تتشكل بين الاعلام والاتصال والمجتمعات المعاصرة." ¹ (Miège, 2000, p. 559)

كما اشرنا الى ذلك سابقا فان التناول المتعدد التخصصات (interdisciplinaire) طرح عدة اشكاليات تنظيمية للتخصص (مثلا التحديد النظري والمعرفي)، واجرائية فيما يتعلق بالبحث في مجال الاعلام والاتصال (خاصة فيما يتعلق بالمنهج والادوات) وموضوعاتيا من خلال التساؤل عن المواضيع التي تدخل في المجال وتلك التي تمس مجالات اخرى. وطرحنا عدة تساؤلات في هذا الشأن مثل :

- كيف يمكن تغطية هذه المجالات الواسعة، ثم الربط بينها ؟
 - كيف يمكن الاتفاق على قاعدة تكون الحد الأدنى للمراجع النظرية، والمفاهيمية او البراديغماتية ؟ ²
- يعتبر Daniel Bounoux انه بالنظر الى تاريخ الوسيلة واعني هنا وسيلة الاتصال الجماهيرية منذ مطلع القرن العشرين، وتاريخ

¹ L'opposition de nature entre information et communication, et la suprématie supposée de la communication, non seulement ne correspondent pas aux évolutions passées (retracées dans des travaux d'historiens ou d'anthropologues), mais peuvent être considérées - dans leurs versions publiques comme dans les présentations post- inc luhanienues qui en sont faites - comme une réduction schématique et superficielle, empêchant de penser la complexité des liens qui se nouent actuellement entre information communication et les sociétés contemporaines.

² Daniel Bounoux, p03

التكنولوجيات الحديثة للاتصال في العقدين الاخيرين من القرن الواحد والعشرين نجد ان هناك نواة صلبة للدراسات والبحوث الخاصة بالإعلام والاتصال. ويبرز هذا في دراسات الوسيلة الاتصالية (الهاتف، المطبوع، شبكة الانترنت، التلفزيون، الاذاعة، السينما...) في كل مظاهرها :

- مظاهرها السيميولوجية : ما نوع الاشارة التي تستخدمها الوسيلة ، هل تكفي بنقل النص ، او تثريه بالصور ، والدلالات ، وما هي النتيجة المرجوة من ذلك ؟ .

- مظاهرها البراغماتية : كيف يستحوذ المستخدمون على الرسائل من اجل تعديل معانيها ، وما هي درجة التفاعل التي يمكن ملاحظتها من فترة بثها الى غاية تلقيها ؟

- مظاهرها الخيالية : كيف ان الخيال الفردي او الاجتماعي لا يكفي باستخدام الوسيلة ، وانما يضيف عليها جمالية ، ويحفها بالتقمصات والاسقاطات.

- مظاهرها النسقية : كيف نملك وسائل في حقيقة الامر هي التي تملكنا ، اي كيف تتحت هذه الوسائل فضاءات تقنعنا في ما بعد انها امتدادات لنا.

ويؤكد ان تاريخ وسائل الاعلام اعطى للتناول المتعدد التخصصات مواضيع ، وارشية امبريقية صلبة. (Daniel, 1999) اي اعطاها جذرا موضوعاتيا.

واذا كان العلم هو "علاقة بين الفاعل والموضوع الذي يتواجد لذاته ، واذا كان العلم يعمل على تفسيره او فهمه من خلال مفرداته ، مفاهيمه ، وقوانينه. " (Fondin, 2001) كما انه "علاقة بين فاعل افتراض

لا يمكن فهمه الا في علاقته مع انموذج علمي او بالنظر اليه، علم اعتبار ان البراديفم العلمي هو مجموع العناصر المنسجمة التي يرجع اليها الباحث من اجل تفسير او فهم شيئاً ما. " (Fondin, 2001, p. 120)

فان الموضوع الرئيسي لتخصص الاعلام والاتصال يكمن في الوسيلة كما احتجنا عليه سابقا، لا نستطيع فهمه وتفسيره الا من خلال براديفم او مجموعة من البراديفمات على حد تعبير Mucchielli.

"ان المعارف محدّدة بالبراديفمات المرجعية المختارة"

«Les connaissances sont contingentes au paradigme de référence pris»

(Micchielli, 2000, p. 80)

لان البراديفم يحمل في طياته نظرة للعالم الذي يحيط بنا، ويعطي نوع من الفاعلية في تفسير الاشياء، وعليه كل شيء يتم التفكير فيه يتم في اطار نظرية او مرجعية او براديفم الى حد ما واضح. بمعنى اننا نعرّف الموضوعات العلمية في علاقتها مع البراديفم الذي نريد دراستها في اطاره، وبالنظر اليه. وتكون هذه الدراسة شديدة الارتباط بالمنطلق الاستمولوجي (نظرية ومفاهيم) وبالمنهج الذي نختاره. ومن هنا تصبح مسألة تحديد البراديفم حيوية لكل تفسير ذا مصداقية.

اذا ما هو البراديفم الذي ندرس في اطاره الاتصال ؟ ما هو البراديفم الذي يسمح لنا بفهم الظواهر المرتبطة بموضوع الوسيلة

«Une relation entre un sujet et une proposition qui ne se comprend que par rapport à un certain paradigme scientifique et en fonction de celui-ci – un paradigme scientifique étant l'ensemble cohérent d'éléments auquel un chercheur se réfère pour expliquer ou comprendre quelque chose.»

الاتصالية ؟ هل تخصص الاعلام والاتصال يملك اصلا براديفم
خاصا به ؟

اذا انطلقنا من معطى ان الاعلام والاتصال تخصص متعدد
التخصصات، فهذا يعني ان الباحث يستطيع ان يتموقع في براديفمات
مختلفة كما يشير الى ذلك "كوهن"

"ان باحثين يعملون في نفس المجال او في مجالات مترابطة،
بإمكانهم الحصول على براديفمات مختلفة في مسارهم. هذا يعني
ان الباحثين بإمكانهم التمتع في براديفمات مختلفة لاستكشاف
وتتبع ظواهر الاتصال."¹ (Vallée, 1991, p. 68)

وبالنظر الى تطور علوم الاعلام والاتصال فان مجموعة من
البراديفمات تفرض نفسها :

-البراديفم السيبرنتيقي : يعتبر المنظمة كشبكة اتصال تتنقل
عبر عدة تقاطعات. بحيث نستطيع متابعة السير المتدرج للمعلومة من
اجل تقييم اثر الشبكة في الأداء، ودرجة الرضى في المجموعة.

-البراديفم السلوكي : يعتبر وسائل الاتصال الجماهيرية
كمنبهات قوية، في مواجهة افراد vulnerable واعتمادا على بحوث
الدعاية والاشهار، تم التوصل الى ان الرسائل الاعلامية تستطيع
تغيير سلوكيات الافراد في الاتجاه المرغوب.

¹ Des chercheurs qui travaillent dans un même domaine ou dans des domaines très connexes.
peuvent acquérir des paradigmes assez différents au cours de leur carrière. Cela signifie que les
chercheurs peuvent se situer dans différents paradigmes pour explorer et appréhender les
phénomènes de la communication.

-البراديفم الوظيفي : يقترح بدل الاهتمام بالرسائل، دراسة استخدامات الجمهور للوسيلة والاشباعات المحققة من ذلك.

-البراديفم التفسيري : يقترح ان دراسة المعاني ينبغي ان تتركز على الطريقة التي يفسر بها الفرد العالم الذي يحيطه من خلال سلوكياته الاتصالية.

• الحاجة الى الاستقلالية في مواجهة المنهجية المتعددة التخصصات.

ان بناء اي تخصص، وحصوله على الشرعية العلمية يتم عبر مراحل زمنية تكون طويلة. تتجاذبها فترات تتسم بالصراع واخرى بالإجماع، مراحل يكون فيها النقاش حادا ومعمقا، واخرى يسيطر عليها سوء التفاهم والصراعات.

وفي تحليله لتطور تخصص الاعلام والاتصال في فرنسا مثلا يشير "Miège"

"اولا، بعض الخصائص الاولية ناجمة عن اللبس الذي لم يتم رفعه؛ ثانيا، الارتفاع المنتظم للقوام البشري (خاصة منذ بداية سنوات التسعينيات) لم يتبعه وعي مشترك بالرهانات العلمية، والمؤسسية، مع ضرورة المشاركة الفعلية لكل فرد، وثالثا، بروز النظام الاعلامي شحذ المصالح التي لم تكن دائما ذات طابع تفكيري او تصوري." ¹ (Miège, 2000, p. 559)

Premièrement, certaines caractéristiques initiales recelaient des ambiguïtés qui n'ont pas toutes été levées ; que deuxièmement, la croissance régulière des effectifs (surtout à partir du début des années quatre-vingt-dix) ne s'est pas accompagnée d'une conscience partagée de l'importance des enjeux scientifiques et institutionnels, et de la nécessité pour chacun d'y intervenir activement ; et que, troisièmement, l'émergence de «d'ordre informationnel» a aiguisé les intérêts, pas tous seulement d'ordre réflexif ou conceptuel.

وان النقاش الحقيقي حول هوية التخصص يبدأ عندما نصل الى الخيارات المنهجية، لأنها هي التي تحدد درجة العلمية، وهي التي تفصل بين الباحث العلمي، وكاتب المحاولات (essayiste)، بين البحث الذي يندرج في تراكم، والتفكير الذي قد يكون ملائماً الا انه يفتقد الى الدقة والثبات العلميين. وعليه فان مصدر القلق الحقيقي في طريق مأسسة التخصص، يتم عندما يفرض هذا النقاش نفسه على كل الذين يزعمون الانتماء الى التخصص. (لأنه يستوجب الابتعاد عن العموميات) ولهذا السبب فان مسالة المنهج تغيب او تدرج في آخر الاهتمامات، او في كثير من الحالات كأنها مسالة لا تطرح. ولهذا نجد ان كل الذين يسعون، او يميلون الى نظرية عامة للإعلام والاتصال توفر لهم امكانية التفكير في بناء اجتماعي ما، يبحثون عن منهجيات تسهل لهم هذا المنحى، وعندما يجدون انفسهم في مازق اداتي عملي، يعودون مباشرة الى اجراءات/مساعي démarches تكون قريبة من المحاولات l'essayisme.

لان خصوصية الاشكاليات الاتصالية والاعلامية اليوم، والتي تسمح بتفسير التطورات المعقدة للاتصال، تفرض على كل باحث في هذا الميدان اللجوء الى ادوات/مناهج متعددة، مستخدمة عامة في تخصصات اخرى*. وهو ما يجعل تعددية المناهج التي نستمدّها من تخصصات اخرى امرا تفرضه الحاجة الى فهم الظاهرة الاتصالية. (Miège, 2000)

* par exemple les méthodes d'enquête de la sociologie ou de l'ethnologie d'une part, les études de corpus de textes des sciences du langage d'autre part

ان الحديث عن تعدد المناهج مرتبط بتعدد النظريات الذي يؤدي بدوره الى تعدد التخصصات، فماذا يستوجب هذا التوجه بالنسبة للباحث في تخصص الاعلام والاتصال.

يسمح هذا التناول حسب "Miège" بربط عدة مناهج من تخصصات مختلفة حول محاور بحث محددة، وخلق تفاعل فيما بينها، ويعطي كمثال على هذه الوضعية الربط بين مناهج تحليل الخطاب مع تلك التي تسمح برصد ممارسات الفاعلين الاجتماعية.

"ان الحالة النموذجية ولكن ايضا الاكثر تداولاً، هي حالة التوفيق بين تحليل الخطابات الاجتماعية، واستراتيجيات او ممارسات الفاعلين الاجتماعيين... اصبح امراً واقعاً كون الربط بين اشكاليات العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع، العلوم السياسية، وحتى العلوم الاقتصادية) وعلوم اللسانيات والخطابات (سواء كانت مكتوبة او غير مكتوبة) يظهر على انه مقاربة منتجة، في ربطها لتطور الممارسات الاجتماعية بإنتاج المعنى." ¹ (Miège, 2000)

ويضيف عن اهمية هذا التناول.

"هذا السعي الى ايجاد التفاعل بين مقاربات، عمل تاريخ العلوم على الفصل بينها بعناية، لا يسمح فقط بتجنب عقبة التحليلات السياقية، وانما خاصة تتبع تحولات الاتصال الاعلامي بصفة دقيقة." ² (Miège, 2000)

Le cas le plus exemplaire mais aussi le plus fréquent est la mise en correspondance de l'analyse de discours sociaux avec celle de stratégies ou de pratiques d'acteurs sociaux. ... C'est un fait que l'articulation entre les problématiques des sciences sociales (sociologie, sciences politiques et même sciences économiques) et celles des sciences des langages et des discours (inscrits ou non dans des textes) se révèle comme une approche productive, en ce qu'elle relie l'évolution des pratiques sociales et la production du sens.

Cette recherche d'interaction entre des approches que l'histoire des sciences a soigneusement dissociées, permet non seulement d'éviter l'écueil des analyses contextuelles, mais surtout de saisir de façon fine les changements de la communication médiatique.

وهذا ما يفسر توجه الباحثين في علوم الاعلام والاتصال نحو التناول المتعدد التخصصات الذي يكاد لا يكون اختيارا بالنسبة اليهم، ليس فقط بالنظر الى العناصر المؤسسة لهذا العلم والذي اشرنا اليه آنفا، ولكن بدرجة اكبر للإمكانيات التي توفرها فيما يتعلق بالبحث ونذكر منها :

- امكانية الربط بين الاجهزة التقنية والتكنولوجية او الوسائط مع انتاج الخطابات او الرسائل والمحتويات.

- امكانية الاخذ بعين الاعتبار مجمل السيرورة الاتصالية انطلاقا من الرسالة التي تمر عبر الوسيلة ووصولها الى التلقي والاستقبال.

- العلاقة المتقلبة بين بنيات التواصل الثقافي والاجتماعي من جهة، مع عناصر الاتصال الجماهيري من جهة اخرى.

- الانتباه الى السيرورات المعقدة والمتناقضة التي تسمح للتكنولوجيات الحديث للاتصال بالنفوذ بتدرج في مختلف المجالات الاجتماعية والمهنية، والتي تؤدي الى تحولات في الممارسات، وتجديد في معايير الفعل الاتصالي.

ويمكن بهذه الطريقة ان نعدد اتجاهات بحثية كثيرة وكلها تؤكد على انه لا يمكن معالجتها انطلاقا من مقاربة واحدة او منهج واحد صالح لكل الاشكاليات، والموضوعات. وان التوجه نحو مناهج متنوعة ومتعددة هو الكفيل بتقديم اجابات نظرية ومنهجية وحتى اجتماعية لكل التحديات التي تطرحها الظاهرة الاتصالية والاعلامية في القرن الواحد والعشرين.

• بعض الملاحظات حول تطور تخصص الاعلام والاتصال في الجزائر.

ان الثورة التقنية والتكنولوجية التي يعرفها العالم اليوم، وتطور العلوم -اي علوم الاعلام والاتصال- التي تفسرها، وتموقع الظواهر التي تعالجها هذه الاخيرة في صلب الاهتمامات والانشغالات، لا يعني ابدا ان التخصص يعرف نفس التطور في كل المجتمعات التي تدرسه في جامعاتها.

يمكن من خلال بعض المؤشرات ان نرصد مدى ملائمة البحث الاعلامي في الجامعة الجزائرية مع تطور الظاهرة الاعلامية والاتصالية في المجتمع.

- سيرورة المؤسسة الاجتماعية لعلوم الاعلام والاتصال سبق وفاق سرعة المؤسسة المعرفية التي ما زالت غائبة، اذ ان تخصص الاعلام والاتصال يعاني من فقدان تراكم معرفي يفسر الظاهرة الاتصالية في المجتمع، رغم ان القرار الاداري لإنشاء تخصص اكاديمي جامعي كان سنة 1964. وعلى سبيل المقارنة هي السنة التي عرفت انشاء المركز من اجل الدراسات الثقافية المعاصرة في بريطانيا الذي ترعرع خارج الاطار الاكاديمي. الا ان المؤسسة المعرفية فرضت فيما بعد المؤسسة الاجتماعية.

- ان بناء تاريخ اي تخصص علمي يقوم على ثلاث عناصر اساسية، ويكون التاريخ بناء على احد هذه العناصر او الثلاثة مجتمعة وهي : تاريخ الافكار، او تاريخ الفكر، او تاريخ النظريات العلمية. تحيل الاولى الى مجموعة من الانتاجات الفكرية التي يبنها فاعلين بصفة فردية او جماعية يتم بثها من خلال قنوات مختلفة ومتنوعة.

أما الثانية، فهي عملية رصد النقاشات التي تكون في فترة زمنية ما، بين مفكرين حول قضية ما، ويتم هذا النقاش عن طريق كتابات ومقالات وكتب، ولا يشارك في هذا النقاش الا من كان يملك الاهلية لذلك. في حين يهتم العنصر الثالث بالنظريات العلمية

او المعرفة التي تحظى بالاعتراف من طرف المؤسسات الاكاديمية التي تملك الشرعية.

واذا حاولنا ولو بصفة عرضية التأريخ لتخصص الاعلام والاتصال في الجزائر نجد انه يفتقد الى الشرعيات الثلاثة. فمن زاوية الافكار لا نكاد نرصد فكرة مفسرة لوضعية اتصالية ما، اما من حيث الفكر يصعب التقاط لقطة من نقاش ولو عن بعد لمفكرين (ان وجدوا) في الفضاء العام داخل المجتمع او في الفضاء الجامعي. اما ما تعلق بالنظريات، فان استهلاك النظريات العامة في علوم الاعلام والاتصال يتم غالبا في حدود العموميات، وغالبا ما يتم رصد التطور الكرونولوجي الذي بدوره يتوقف عند تاريخ ظهور النظرية والنتائج المتوصل اليها، دون الاهتمام بالسيرورات المفسرة للظواهر المعالجة. قد يحتج علي قائل في هذا العنصر الاخير بسبب اغفالي لمساهمات البعض على غرار الاستاذ عبد الرحمان عزي في ما يسميه "نظرية الحتمية القيمة في الاعلام" وهذا ينقلني الى النقطة الموالية.

- ما يسميه الاستاذ عزي عبد الرحمان نظرية الحتمية القيمة يعكس هذا التوجه لدى كثير من الباحثين نحو النظريات العامة للإعلام والاتصال التي تضرب عرض الحائط الواقع الامبريقي المتغير، وبدلا من ذلك تقوم بما يمكن تسميته اقتحام نظري يخفي محاولة بناء اجتماعي للواقع. وعليه فانه من المشروع طرح بعض الاستفهامات من قبيل، كيف يمكن لهذه النظرية ان تجمع بين كل مجالات الاعلام والاتصال واشكالياتها المتناثرة انطلاقا من زاوية واحدة وموحدة ؟ لماذا لا تخضع مفاهيمها للطريقة العلمية الاستباطية التي تستوجب الاختبار الامبريقي ؟

وما لم تخضع النظرية الى محك الواقع المتغير يصعب اعتمادها علميا لتفسير الظواهر المرتبطة بالاعلام والاتصال.

خلاصة

اصبح التناول المتعدد التخصصات يكاد لا يكون اختيارا بالنسبة للباحثين في علوم الاعلام والاتصال، لكل الاسباب التي عددناها في هذا النص، التاريخية منها - اي تاريخ هذه العلوم -، والنظرية - اي علاقة هذه العلوم بالعلوم الاجتماعية - وكذا المنهجية - اي تعددية المناهج والمقتربات -، بالإضافة الى طبيعة العلوم -اي وجودها في مفترق العلوم الاجتماعية - . الا ان علوم الاعلام والاتصال علوم قائمة بذاتها مستقلة عن العلوم الاخرى بموضوعها العلمي الذي هو الوسيلة الجماهيرية -وسائل الاتصال الجماهيرية -، على الرغم من توسع دائرة الانشغالات والاهتمامات وحتى الموضوعات.

جاء نص المقال كله محاولة لتفسير هذه العلاقة، والهدف منه هو فتح النقاش حول ملائمة وجود هذه العلوم في الجامعة ليس في المطلق بطبيعة الحال، وانما التساؤل عن ما قدمته من تفسيرات للواقع الاعلامي في المجتمع. اذ بعد مرور ما يقارب الخمسون سنة من بداية تدريس علوم الاعلام والاتصال في جامعة الجزائر، نعجز على ايجاد ما يشبه التراكم المعرفي حول اي موضوع من موضوعات الاعلام والاتصال، رغم العدد الهائل من الدراسات والبحوث، وانتقال الاهتمام من محتوى الصحافة الى محتوى التلفزيون والاذاعة ثم دراسات الجمهور، وبعدها المؤسسة، بالإضافة الى التكنولوجيات الحديثة للاتصال. الا اننا نبقى عاجزين على الرغم من ذلك الى يومنا هذا على توصيف هذه الظواهر من الناحية العلمية والقول مثلا ما هي طبيعة محتويات الصحف التي مر على انشاء بعضها عشرين (20) سنة. وما هي اتجاهاتها التحريرية (بعيدا عن المواقف الايديولوجية من هذه

الصحف)، او الحديث عن ملامح جمهور التلفزيون الجزائري مثلا، ولو حتى الملامح الكبرى، او طبيعة علاقة بعض الفئات من الجمهور الجزائري مع ما يشاهدون من برامج في القنوات الفضائية (بعيدا عن اطلاق الاحكام القيمية والاخلاقية عن تأثير ما يكون متخيلا اكثر مما هو حقيقي)، في حين، نستطيع بكل اريحية، ان نحدد صفات الجمهور الامريكي والرأي العام الفرنسي، واتجاهات الصحافة البريطانية. . . ، ونحن متأكدين من صحة ما نقول، لأننا نركز على تراكم معرفي نظري يوفر لنا الارضية العلمية لتفسير كل هذه الظواهر.

يبقى ان كل هذه الفترة الطويلة من البحث ونحن لا نملك استراتيجية بحثية تسمح لنا من تحديد التوجهات النظرية والخيارات المنهجية، والاولويات البحثية، على اساسها نتمكن من ربط البحوث ببعضها البعض للتوصل الى تفسيرات علمية للظواهر الاعلامية والاتصالية التي تحيط بنا.

المراجع

Daniel, B. (1999). Introduction aux sciences de l'information et de la communication. Alger : Casbah Editions.

Fondin, H. (2001). La Science de l'information : Posture épistémologique et spécificité disciplinaire. Documentaliste-Sciences de l'information, 38(2).

Mathien, M. (1995, 4ém trimestre). L'études des médias : un champ ouvert à la transdisciplinarité. Communication et langage(106).

Micchielli, A. (2000). La nouvelle communication : épistémologie des sciences de l'information-communication. Paris : Armand Colin.

Miège, B. (2000). Les apports à la recherche des sciences de l'information et de la communication. Réseaux, 18(100).

Olivesi, S. (2006). Sciences de l'information et de la communication Objet,savoirs,disipline. Grenoble : Presse universitaire de Grenoble.

Sfez, L. (1994, Printemps). Peut on parler de sciences à propos de l'information et de la communication : Rapport au comité national d'évaluation des universités. Quademi(23).

Vallée, A. L. (1991). La recherche en communication : Eléments de méthodologie. Quebec : Presse de l'université du Quebec / Télé université.